الأستاذة : ليلى جغام
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة – الجزائر
العنوان الالكتروني : Leilaadarabi@yahoo.fr
الهاتف : 0661940444

ملتقى الأدب الشعبي المغاربي- جامعة الطارف أكتوبر 2013

عنوان المقالة :

المـثل الشعبي الجزائري

بين

مجاز الصورة ومـوسيقى الشكـل

توطئة :

نحاول في هذه المداخلة أن نعرض لعبارة المثل الشعبي من جانبي الشكل والمضمون، إذ كما هو معروف أن المثل شكل لغوي يبقى شاهدا عن مستوى البلاغة عند العرب، فهو متضمن لكل وجوهها وتجلّياتها، فالمثل تجتمع له أربعة لا تجتمع لغيره من الكلام، إصابة المعنى وايجاز العبارة ووجوه التشبيه والكناية .

ونحن إذ ندرس المثل هنا نركّز على ما توفره المحسنات الصوتية – في تصنيف العمري للمحسّنات البديعية – من موسيقى الشكل في المثل، وما يصيب لذلك المتلقي من تأثير نفسي ومعنوي، وكذا ما تكتسيه عبارة المثل بفعل توظيف المجاز بصورتيه اللغوي والعقلي من جمال في الصورة وجلاء في المعنى .

ونحن لذلك نقدّم أولا بتعريف المثل في اللغة والاصطلاح

1-تعريف المثل:

يطلق المثل في اللغة على الشيء الذي يضرب لشيء مثلا، فيجعل مثله، يقال تمثّل فلان: ضَرَبَ مثلا، وتمثّل بالشيء ضربه مثلا، والمِثْلُ والمَثَلُ كالمَثَلِ والجمع أمثال[1]،قال تعالى :﴿**ولله المثل الأعلى** ﴾(النحل/60)، يريد أنه سبحانه أمر عباده بتوحيده ونفي كل إله سواه، فالمثل الأعلى(هنا) التوحيد الخالص، والصفات الإلهية العليا التي لا ينازعه فيها أحد[2].

والمِثْلُ بكسر الميم الشبه، يقال مِثْلٌ ومَثِيلٌ وشِبْهٌ وشَبَهٌ بمعنى واحد، كما ورد في قوله تعالى:﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾(الشورى/11)، أراد ليس كذاته شيء فالنفي المطلق يؤكد على حقيقة وحدانيته وينزهه عن النظير والمثيل جل وعلا[3] .

وفي حديث المقدام أن رسول الله(صلّى الله عليه وسلّم) قال:" **أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ**" قال ابن الأثير[في تفسير ذلك] :وهذا يحتمل وجهين من التأويل، أحدهما أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أعطى من الظاهر المتلو، والثاني أنه أوتي الكتاب وحيا وأوتي من البيان مثله أي أُذِنَ له أن يبين ما في الكتاب فيعم [به] ويخص ويزيد وينقص فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن[4].

ونقول مَثُلَ الشَيْءُ يَمْثُلُ مُثُولاً، قام منتصبا، ومثل بين يديه مثولا أي انتصب قائما، ومنه قيل لمنارة المسرجة مائلة، وورد في الحديث الشريف:" **مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ النَّاسُ قِيَامًا فَلْيَتَبَوَأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**"[5]، وهو [أي الماثل] من الأضداد ، يكون الماثل القائم، ويكون اللاطئ بالأرض[6].

فعبّر بلفظ الأمر(فليتبوأ) وقصد معنى الخبر لتقرير استحقاقه دخول النار، والتحذير من تلك الصفة التي تؤدي بأصحابها للهلاك ، وهكذا تتصل الدلالة اللغوية للمثل بالعنصر الحركي التصويري

ومن معاني المثل في اللغة أيضا المدح والثناء، ومنه قالوا: مَثُلَ الرجل يَمْثُلُ مَثَالَةً إذا فَضُلَ وَحَسُنَ حاله، فالمثالة حسن الحال، والمَثِيلُ: الرجل الفاضل، والأَمْثَلُ، الأفضل، وهو أَمْثَلُ قومه أي أفضلهم، وفلان أمثل بني فلان، أدناهم إلى الخير، وهؤلاء أماثل القوم أي خيارهم[7].

وورد كذلك في قوله عز وجل: ﴿**ويذهبا بطريقتكم المثلى**﴾(طه/63)، وقال أيضا:﴿**إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلاّ يوما**﴾(طه/104)،والطريقة المثلى هاهنا أشبه بالحق، ومعنى الأمثل ذو الفضل والصواب، الذي أمثل القوم وأفضلهم[8].

والتمثال الصورة المصورة، والجمع تماثيل، وفي ثوبه تماثيل أي صور حيوانات[...]، ومَثَّل له الشيء صوّره حتى كأنه ينظر إليه، وأمتثله هو[أي] تصوره، مثّلت له كذا تمثيلا إذا صورت له مثالة بكتابة وغيرها[9] .

فالأصل في كلمة مثل كما نرى مستمدة من دلالة حسية تتعلق بالشخوص والأشكال المنحوتة والصور والرسوم وغيرها.

أما في الاصطلاح فقد قال المرزوقي في معنى المثل: «المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها، تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنقل عما وردت فيه إلى كل ما يصلح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها، واستجيز من الحذف ومضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام »[10].

فالمثل عند المرزوقي إذن هو جملة موجزة في أصلها، مما يعطيها سمة القبول، والشيوع بفعل التداول، ويطلق في موقف موافق أو مشابه لحادثته الأصلية، دون تغيير يذكر في صيغته اللفظية ويستجاز فيه مالا يستجاز في غيره من الكلام.

أما الفارابي فعرّفه بقوله: «المثل ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه[ذاع وشاع بينهم] فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتنع من الدر(جواهر الكلام)، ووصلوا إلى المطالب القصية، وتفرجوا عن الكرب والمكربة، وهو ابلغ الحكمة لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة ، أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة »[11] .

ونخلص إلى أن المثل قول موجز العبارة، بليغ القصد، صدر عن العامة وارتضته في حياتها، وقد جاء معبّرا عن تصرفاتهم تجاه مواقف اعترضتهم، فينشأ في البداية عن قصة أصلية أو حادثة تدعى(مورد المثل)، ويضرب بعد ذلك في موقف معين أو حادثة مشابهة أو مقاربة بوجه ما للحادثة الأصلية والتي تسمى بدورها (مضرب المثل).

والمثل كلمة لها أصل لغوي، ويراد بها في الاستعمال القول المقتضب المشهور الذي تتداوله ألسنة الناس وينزل بموقع في أذهانهم لفشوه وانتشاره، فيصير في أفضليته وبيانه كالعلامة أو الشاهد الذي يقاس عليه، فكأنه يجعل مقياسا لغيره[12] .

والأمثال بعدِّها رموزا وإشارات يلوح بها على المعاني تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا، ومن أجل ذلك قيل في حد المثل–أيضا– إنه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه، وحيث هو بهذه المثابة فلا ينبغي الإخلال بمعرفته[13] .

2 – نشوء المثل الشعبي وسيرانه بين الناس :

«يعود خلق المثل الشعبي إلى الشخصية المفردة، وذلك في مختلف طبقات الشعب، وفي أي مجال في الحياة، ثمّ ينتشر دون اهتمام بقائله، وهذا الانتشار يدلّ على أنّ المثل قد مسّ حسّ المستمعين له، وبالتالي يصير ملكا لهم جميعا، وبذلك يكتب له العيش مع الأجيال التي تحتاج للاستشهاد به »[14]؛ أي أنّ المثل الشعبي في بداية استعماله ينسب إلى شخصية واحدة التي تكون في الغالب مجهولة، ثمّ ينتشر بفعل مسّه لإحساس عديد المستمعين، ممّا يكتب له التداول والرواج ضمن أوسع اطار ممكن، لاستعماله في مواقفة مشابهة أو مقاربة لموقفه الأصلي، الذي هو مصدر المثل .

وهذه الأمثال السائرة من أجمع ضروب الكلام وأبلغها، فهي تعبّر عن تجارب إنسانية فردية يعيشها الناس، بل إنّها تعبّر عن تجارب إنسانية فردية يعيشها الناس بعيدة عن الوهم والخيال [15]، ممّا يقف شاهدا على أنّ هذه الأمثال وثيقة الصلة بالحياة اليومية للأشخاص، إذ هي تعالج مواقفا خاصّة وعامّة من حياتهم المعيشة .

3 – صور المجاز في عبارة المثل الشعبي الجزائري:

من المعروف أن لفظة المجاز تستعمل في مقابل الحقيقة، ونقول هذه حقيقة وهذا مجاز، فالحقيقة هي أصل وضع الأمر، والمجاز هو وضع جديد أتخذ للشيء واعتبر تجوّزا على أنه الحقيقة، ولفظة المجازقبل أن تكون مصطلحا بلاغيا هي استعمال لغوي ورد في أكثر من موضع، أما ونحن في إطار الدراسة البلاغية فإنه يجدر بنا أن نشير إلى معناها عند علماء البلاغة، ونلتزم به.

إن ابن الأثير في حديثه عن الحقيقة والمجاز يقول: «وهذا الفصل مهم كبير من مهمات علم البيان، لا بل هو علم البيان بأجمعه فإن تصاريف العبارات على الأسلوب المجازي فوائد كثيرة [...]، وأما المجاز فهو ما أريد به غير المعني الموضوع له في أصل اللغة [...] كقولنا زيد أسد [وهو من باب التشبيه] [...]، فإن نقلنا الشمس إلى الوجه المليح استعارة كان ذلك له مجازا لا حقيقة»[16].

وجاء في أسرار البلاغة أنّ«كل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول فهي مجاز»[17]، وهكذا فالمعنى الشائع لكلمة مجاز هو مقابل الحقيقة ، يؤخذ كمرجع فيه المعنى اللغوي ، فما وافقه هو الحقيقة وما خالفه مع جواز هو المجاز .

ولأنّنا في اطار تطبيقي توجّب علينا عرض بعض النصوص المثلية كشواهد للأنواع المختلفة من المجازات كما هي معروفة عند أهل البلاغة، وذلك فيما يأتي :

أ- **المجاز المبني على المشابهة :**

وهو ما يتلخّص في مجاز الاستعارة، إذ تعرّف على أنّها تشبيه حذف أحد طرفيه، وقد وردت في كتب علماء البلاغة بعدد من التعريفات، غير أنّنا نذكر بعضها على سبيل التمثيل، إذ يعرّفها الجاحظ بقوله : هي«تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه»[18]، أي إذا عبر عنه ، وهي عند الجرجاني «أن تريد تشبيه الشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه، تريد أن تقول: رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول: رأيت أسد»[19] .

وهي عند أهلها في أشهر تقسيماتها تصريحية ومكنية، فأما التصريحية فهي ما صرّح فيها بلفظ المشبّه به، وحذف فيها المشبّه، وأما المكنية فهي ما ذكر فيها لفظ المشبّه وحذف فيها لفظ المشبّه به وكنّي عنه بلازم من لوازمه، ونمثّل لوجودها في عبارة المثل الشعبي الجزائري بما يأتي :

- **الجنّة وما نتمنّى** [20] .
- **در الهم في الشبكة شيء يطيح وشيء يبقى** [21] .
- **ربي يعطي اللحم للي ما عنده سنين** [22] .
- **وقية زهر خير من قنطار فهامة** [23] .

إذا نظرنا إلى هذه المجموعة من الأمثال نجدها تتضمن استعارات، تختلف في كون بعضها تصريحية، وبعضها الآخر مكنية، ففي المثل الأوّل حديثه عن الجنّة متعلّق بما يعيشه من صفاء ورغد عيش، وصاحب المثل يبالغ إذ يقابل بيت حياته وحال الجنّة في مشابهة يحذف فيه لفظ الحياة التي يحياها، على سبيل الاستعارة التصريحية، إذ الجنّة مشبّه به صرّح بذكرها، والحياة مشبّه حذف، وقدّر في أصل القصّة .

وأمّا المثل الثاني فيعبّر عن مواساة الناس، وتهوين المصائب، حيث شبّه الهمّ (شيء معنوي) بما يوضع في الشبكة كالسمك مثلا (شيء مادي)، فحذف المشبّه به (الشيء المادي)، وذكر شيء من لوازمه (الشبكة) على سبيل الاستعارة المكنية، كما هو حال المثل الرابع، إذ شبّه (الزهر) المعنوي بما يقاس (المادي)، وحذف المشبّه به (المادي)، وذكر شيئا من لوزمه (وقية)، وهي مقدار قياس، وجعل (قنطار) وهو وحدة قياس لـ(الفهامة) وهي شيء مجرّد، وكل ذلك على سبيل الاستعارة المكنية، ذلك للإيمان المطلق لدى عموم الناس بالحظ، حتى أنّهم فضّلوه عن الثقافة وحسن الفهم [*].

ويأتي المثل الثالث على سبيل الاستعارة التصريحية، حيث يصرّح بلفظ المشبّه به في جزئي المثل، إذ يدلّ على دلالة النعيم يعطى للبخيل فلا يستمتع به، كاللحم يعطى لمن لا أسنان له فلا يكون له الاستمتاع به، إذ (اللحم) و(ما عنده سنين) مشبّه به صرّح بلفظه، في حين حذف المشبّه (النعيم أو المال) و(البخيل) .

والاستعارة كما نلاحظ إجلاء للمعنى وتوضيحه كما هو حال الصور البيانية الأخرى، رغم أنّها أبلغها وأكثرها تأثيرا لأنّها ضرب من المجاز، وهي تشبيه حذف أحد طرفيه، ولها قرينة كقرينة الكناية، وهي عند جاكبسون من أخصّ جماليات الشعر،فضلا على التشخيص والتجسيد الذي تضفيه على معاني الأمثال حيث نجدها تضج بالحركة والحيوية والنشاط.

ب – المجاز المبني على غير المشابهة :

وهو بدوره نوعان اثنان هما : مرسل وعقلي،يبنىالأول على عدد من العلاقات نذكر منها (السببية، المسببية، الكلية، الجزئية، الآلية، العموم، الخصوص، المستقبلية، الماضوية، المحلية، الحالية ...)، وتتنوع علاقات الثاني إلى : (المصدرية، الزمانية، المكانية، السببية، الفاعلية، المفعولية)، ونمثّل لبعض ذلك بما يأتي من الأمثال الشعبية :

- **قدّم رجل وأخّر رجل ما تعرف الخير يبطا وألا يعجل**[24].
- **القلب اللي ما يغير ما يستاهل حتى قفّة شعير** [25] .
- **عمرك يا خمّاس الكرموص ما تشري البرنوص**[26] .
- **اللي ما هو في القلب ينسوه الكرعين** [27] .
- **المؤمن ما يكون حقود** [28] .
- **شرط المجاهر على هبرة** [29] .

وغلبت صور المجاز المرسل على أمثال المدونة موضوع الدراسة، لذلك تجدون أنّ النماذج المختارة تترجم ذلك، حيث المثل الأول والرابع يتضمن مجازا مرسلا علاقته الآلية، فـ(الرجل) في الأول آلة الخطو إلى الأمام والتأخر إلى الوراء، و(الكرعين) في الرابع آلة الزيارة، ويضرب المثل الأوّل للحث على التأني وعدم التسرّع في أخذ القرار، ويتضمن المثل الرابع معنى أنّ الزيارة تظهر المحبة، وكما يقال في مثل شعبي آخر **(الرجل تمشي وين يهب الخاطر)**، أي أين يحب المرء .

وأما المثل الثاني فيعبّر عن مجاز مرسل علاقته الجزئية، لأنّ القلب جزء من الجسم، وربما كان ذكره في التعبير عن الشخص ككل لأنّه أثمن ما فيه، لقول الرسول الكريم " **ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب**" [30]،والشعير نوع من المحصول يصنع منه الخبز بعد طحنه، وهو ما عرفه الناس قديما وما عبّر عن حياتهم، أو ربما كان أرخص أنواع الطعام للتعبير عن إهانة الشخص الموصوف .

وجاء المجاز في المثل الخامس مرسل بعلاقة كلية، ذكر فيه الكلّ وهو (المؤمن) أي الشخص وأريد الجزء، أي مكان الضغينة والكره والحقد، وهو القلب، حيث جاء في مثل شعبي آخر **(قلب المومن ما يكون حقود)**، ويتضمن المثل في العبارتين دلالة النهي عن الحقد والضغينة تجاه المؤمنين بشكل خاص .

في حين اندرج المثلين الثالث والسادس في إطار المجاز المرسل بعلاقتي الخصوص والعموم، حيث ذكر (خمّاس الكرموص)؛وهي مهنة لا تعود على صاحبها بالفائدة الكبيرة، وعبارة المثل خصّت هذه المهنة، لكن المعنى يتوسّع ليشمل عموم المهن التي لا تعود على أصحابها بالربح، ذلك أنّ العبارة المثلية لا تستعمل في ما تستعمل فيه من المواقف التي تضرب فيها بتطابق مطلق، إذ هي مواقف مشابهة أو مقاربة لموقف المثل الأصل استحضرته إلى الذهن .

والمثل السادس تضمن علاقة العموم، إذ المجاهر وهبرة قبيلتان في الغرب الجزائري، كانتا في خصام دائم، فانتصرت المجاهر على هبرة، فاشترط الغالب على المغلوب شروطا بالغوا فيها حتى ضرب بها المثل[31]، والشروط في الأصل لا تضعها القبيلة ككل وإنّما يضعها فقط شيخها، وبذلك ذكر اسم القبيلة كعموم وقصد الشيخ منها كخصوص، مما يربط الأمثال بالحياة والبيئة والأحداث التي تشكّل يوميات الناس .

4- موسيقىالبديع في الأمثال الشعبية :

جاء في "**الإيضاح**" أن علم البديع « هو علم يعرف به تحسين وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة »[32]، أي أنه مجموعة قواعد تعرف بها كيفية جعل الكلام حسنا من حيث الشكل والمعنى، لكن هذا مقرون برعاية تطابقه مع مقتضى الحال، وذلك بمناسبة هذا الكلام للحالة التي يرد فيها ونفسية الجمهور الذين يوجه إليهم، مع كونه مفهوما لديهم وواضحا لهم.

وورد في كتاب "**في البلاغة العربية**" أن ابن خلدون يعرّف البديع بقوله:« هو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق : إما بسجع يفصله، أو تجنيس يشابه بين ألفاظه، أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك »[33] .

يشير ابن خلدون في قوله السابق إلى أن علم البديع هو كل ما يزين الكلام ويحسّنه بنوع من التنميق والزخرف، ويذكره بعد ذلك بأنواعه وأقسامه أو بما يعرف بالمحسنات البديعية، اللفظية والمعنوية، ويقول القزويني أن السكاكي قد عرّف البلاغة في كتابه "المفتاح"، وأشار إلى طرفيها الأعلى والأسفل (البيان والبديع)، وإلى ما بينهما من درجات متفاوتة، ثم نوّع الفصاحة إلى نوعين، نوع راجع إلى المعنى ونوع راجع إلى اللفظ[34]، ويقصد بتنويع الفصاحة إلى نوعين انقسام البديع إلى محسنات بديعية لفظية ومعنوية، أي أن السكاكي يعيد البديع إلى الفصاحة بينما يرد البيان والمعاني إلى البلاغة.

وقد أشار القزويني إلى هذه المحسنات بنوعيها، وقسّم كل منها إلى أقسام، « فمن المعنوية ذكر المطابقة أو الطباق، والمقابلة والمناسبة أو مراعاة النظير، والمشاكلة والاستطراد والمزاوجة، والعكس والتورية واللف والنشر، والجمع والتفريق والتقسيم [...] والجمع مع التقسيم والجمع مع التفريق والمبالغة والإغراق والغلو والمذهب الكلامي [...] تأكيد المدح بما يشبه الذم والعكس والتوجيه، ومن اللفظية أورد الجناس ورد العجز على الصدر والسجع والموازنة [...] ولزوم ما لا يلزم »[35]، واختلفت هذه المحسنات

بنوعيها بالزيادة والنقصان عند البلاغيين، ولأنّنا نركّز اهتمامنا على جانب الشكل مما يكون اللفظ فيه ينتج جرسا موسيقيا يؤثّر في سامعه ويثير اهتمامه، ولابأس إن حسنت الدلالة في تفاعلها مع الشكل، فنحن إذ ذاك سنحصر نماذجنا المثلية في جانب محسّنات اللفظ دون المعنى، إلاّ ما وجدناه من المعنى ويثير نغما تطرب له الأذن وتستلذ سماعه .

4 – 1 – الجناس :

وهناك من يسميه تجنيسا ومن يسميه مجانسا[36]، ورغم هذا الاختلاف في التسمية إلا أن المعنى واحد، وهو ما أشرنا إليه سابقا، أي أنه فن من فنون البديع اللفظي، وهو أن تجيء الكلمة تجانس أخرى في بيت شعر وكلام [الشعر أو النثر] ومجانستها لها أن تشبهها في تأليف حروفها[37] .

الجـنـــــاس

جناس تام

وهو ما تناسب فيه اللفظان في:
– عدد الحروف
–نوعها
– ترتيبها
–هيئتها الحاصلة من الحركات والسكنات

جناس ناقص

هو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور الأربعة التي ذكرت في الأول.

ولتمثيل ذلك نورد الأمثال الآتية :

- **تلاقى الساقر مع الناقر** [38] .
- **جاءت بين الساق والتماق**[39].
- **صادقه ولا فارقه** [40] .
- **كل محولة مهولة وكل منقلة مذبالة** [41].
- **الخلطة تردّي والجرب يعدي يا زعطوط يا ولدي** [42] .

الملاحظ أنّ الأمثال الواردة كلّها من نوع الجناس الناقص، إذ الألفاظ فضلا عن اختلافها في المعنى تختلف في أمر من الأمور الأربعة التي أشير لها في تعريف الجناس الناقص، ففي المثل الأول وقعت المجانسة بين (الساقر) و(الناقر)، والاختلاف في حرفي السين والنون، ويضرب المثل

لالتقاء النقيضين يكون سببا في العاقبة الوخيمة، ويعبّر المثل الثاني على عدم الجدوى في انقاذ من جاء بين أمرين يصعب التخلّص منهما، ووقع الجناس في هذا المثل بين (الساق) وهي أعلى القدم، و(التماق) وهو الحذاء، وقد أضيف حرف التاء في الأول وهو ما يصف الجناس بنوع **المردوف**، والاختلاف بين الحرفين السين والميم، ولأنّ الحرفين متباعدين في المخرج فهو من نوع **اللاحق**، وقد يعبّر عن معنى هذا مثل آخر **(بين المطرقة والسندان)**.

ووقعت المجانسة في المثل الثالث بين (صادقه) و(فارقه)، ومعنى المثل إمّا أن تصادق وإما أن تفارق، وليس هناك موقفا وسطا، وإلا كان نفاقا، ويضرب في ردع الانتهازي من الناس، وتجانست في المثل الرابع لفظتي (محولة) و(مهولة)، فجاء حرف الهاء في الثانية بدل حرف الحاء في الأولى، وهما حرفان من نفس المخرج، لذا فالجناس من نوع **المضارع**، ويضرب في الحثّ على التزام الأوطان وعدم مغادرتها لإصابة دنيا زائفة، فالشخص كالنبتة متى نقلت من مكانها ذبلت .

وجاء الجناس في المثل الخامس بين (تردي) و(يعدي)، حيث وقع الاختلاف في حرفين، الياء بدل التاء، والعين بدل الراء، ويتضمن معنى المثل النهي عن مخالطة الناس إلا بمعرفة أصولهم ومعادنهم، لأنّ ما فيهم من طباع– خاصة الفاسدة – حالها حال الجرب، تنتقل عدواه بالمخالطة والتماس مع الناس، فالناس معادن كما قال رسولنا المصطفى عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

ولأنّ الجناس من محسّنات اللفظ نجد في هذه المجموعة من الأمثال بروز الجانب الصوتي الذي تولّد من تجاور الكلمات المناسبة من حيث نوع الحروف أو ترتيبها، ويعود ذلك « إلى ظهور هذا المقوّم [الصوتي] كقيمة فنية كبيرة في التراث الأدبي العربي القديم شعرا كان أم أسجاعا أم خطبا وأمثالا، بالقياس إلى النص القرآني، فإذا ما نظر إلى البنية نظرة كمية شكلية –وكذلك كانت نظرة الباقلاني– [في إعجاز القرآن] بدا أوفر حظا في النص الأدبي منه في النص الديني» [43] .

فوجود المقوم الصوتي في المثل ليس بالجديد، ولكنه سمة النص الأدبي القديم عند العرب، ربما لأنهم كانوا يعتمدون السماع في الحكم على الجودة –فيما أظن– لتميزهم بأذن ذواقة وحافظة قوية، إذ أن تراثهم آنذاك لم يكن مدونا بل كانوا يحفظونه حفظا، وجانب الصوت كان مساعدا على هذا الحفظ، والأمثال كذلك تناقلتها العرب جيلا بعد جيل، وهي كما ذكرت المصادر نشأت في أغلبها في العصر الجاهلي، وذلك ظاهر فيما احتوته من مظاهر البيئة والعادات والخصال والصفات وحتى أسماء الأشخاص والحيوانات.

وقد كان جانب الصوت هذا واحد مما أعطى للمثل قيمة، إلى جانب ما يتضمنه من فكرة وما يعبر عليه من معنى، خاصة من حيث ارتباطه بالحياة العربية بكل معطياتها ونقله لكل مجرياتها، وما يكون في المثل الفصيح يكون في الشعبي، مع الاختلاف في صفة الاعراب .

4– 2 – السجع:

وهو محسن بديعي لفظي يخص النثر فقط، ومقابله في الشعر يسميه البلاغيون (التصريع) ، ويعرف السجع بقول ابن الأثير:« وحده أن يقال تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد»[44]، والتواطؤ هنا بمعنى التوافق والتماثل أي أن تتوافق أواخر الأشطر من الكلام .

والأصل في السجع – كما قال ابن الأثير – إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء والنفس تميل إليه بالطبع[45]، وذلك ما جعل كلام العرب كله يتضمن هذه الصور من تزيين الكلام وتجميله، ونستشهد لذلك بعدد من الأمثال التي حوت الكثير من الأسجاع، نورد منها :

- **إذا عطاك العاطي ما تشقى ما تباطي**[46] .
- **العام اللي نقول نشري فيه الكابوس نبيع فيه البرنوس**[47] .
- **اللي في عمره مدّة ما تكتله شدّة**[48].
- **درها في النية وارقد في الثنية**[49].
- **لا تفرح للي جات ولا تندم على اللي فات**[50].
- **الدار محلوله والمراه مختوله**[51].

وقد جاءت أغلب الأسجاع في هذه الأمثال في أحسن صورها، حيث تتساوى الفقرتين من المثل في عدد الكلمات، وهو من أبلغ أنواع السجع، وأكثرها تأثيرا، حيث تطرب لها الأذن وتستلذها، وجرت الأسجاع في المثل الأول بين فاصلتي (العاطي) وهو الله و(تباطي) أي تقوم بالفعل ببطء، ومعنى المثل أنّه متى سهّل الله لك الأمور وأراد رزقك منها لن يعطّل ذلك سرعة ولا بطء، ويستعمل للدلالة على غيرة البعض تجاه ما عند البعض، وتساوت الفاصلتين من لفظتي (الكابوس) أي المسدس و(البرنوس)، وقد زاد طول الفقرة الأولى عن الثانية، ولو أنّ الفارق بينهما ليس بالكبير، وتتضمن عبارته تحسّر قائله عن حاله المادية، الذي يتمنى أن تتحسن فتزداد سوء .

وتساوت الفاصلتين في المثل الثالث بين لفظتي (مدّة) أي زمن و(شدّة) أي أزمة، وذلك تنبيه إلى أنّ لكل أجل كتاب، فليس الموت مرض أو أزمة مهما كان نوعها، وتوافقت الفاصلتين في المثل الرابع بين لفظتي (النية) طيب السريرة و(الثنية) الطريق، ومعناه أصدق ظنّك بالله وكن أينما كنت، وتوافقت لفظتي (جات) و(فات) في المثل الخامس، ومضمونه الرضا بحكم الله خيره وشرّه، ويدلّ المثل السادس على من اجتمعت عليه مصيبتين معا، ويكون ذلك أمر وخيم، وتوافقت في هذا المثل فاصلتي اللفظتين (محلوله) دون باب يوصد على ما تحتويه و(مختوله) أي مجنونة .

ونجد أن وقوع السجع في كل مثل قد أكسبه جمالا في العبارة وتوازنا تحسّه الأذن في التناسب بين كلمات الشطرين، الذي يولّده تعادل في عدد الحروف المكونة لمفردات كل شطر، مما يجعل النفس تميل إليه لأنها تحب الموسيقى وتطرب لها، وذلك مما يساعدها على حفظ الأمثال وتداولها .

إلا أن هذا السجع لا تقف وظيفته عند الاعتدال وتواطؤ الفواصل –كما ذكر ابن الأثير– إنما ينبغي أن تكون الألفاظ حلوة حادة طنّانة رنانة لا غثة باردة، أي أن صاحبها لا يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن [أيضا] ، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثوابا من الكر سف(*)، أو ينظم عقدا من الخزف الملون[52] .

فابن الأثير يستقبح من السجع ما كان متكلفا أو متعسفا في وضعه، أما إذا جاء محمولا على الطبع غير متكلف فإنه يكون في غاية الحسن [53]، وهذا ما نلمسه في الأمثال، لأنها ليست مما تكلف صاحبها فيها وضع ألفاظها المسجوعة، إنما هي أقوال وردت عفويا على لسان أناس عاديين، ربما كانوا من عامة الناس، وحتى ما جاء منها في صورة الحكمة كان للسجع فيه غرض ومقصد، هو نقل فكرة المثل ومحاولة الإقناع بها لما فيها من الفائدة والصواب .

4– 3 – الترصيع :

وهو محسن بديعي لفظي، يعرّف بأنّه « توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز أو تقاربها »[54]، وقال صفي الدين الحلي في تعريف الترصيع : « هو عبارة عن مقابلة كل لفظة من صدر البيت أو من الفقرة في النثر بلفظة على وزنها ورويها وإعرابها، وهو مأخوذ من مقابلة ترصيع العقد »[55]، ونمثّل لوجوده من الأمثال الشعبية بما يأتي :

- **كل من طلع ينزل وكل من سمن يهزل** [56] .
- **يعيى طاير القطا ولازم يحط في الوطا**[57] .
- **يموت النفّاق ويبقى الرزّاق** [58] .
- **كنّيتها طال همّي، حكّيتها سال دمّي** [59].
- **العدو ما يولي صديق، والنّخالة ما تولي دقيق** [60] .

ونلاحظ في هذه الأمثال توازن الألفاظ المتقابلة من الفقرتين للمثل الواحد وتوافق الأعجاز – على حد التعريف الأول للترصيع –، فنجد في المثل الأول تقابل لفظتي (ينزل ويهزل)، وفي المثل الثاني (القطا والوطا)، وفي الثالث (النفّاق والرزّاق)، وفي الرابع (همّي ودمّي)، وفي الخامس (صديق ودقيق)، ولكل مثل من هذه الأمثال قصّة أصل يعود إليها، ومعنا يدلّ عليه .

ويضرب المثل الأوّل لضرورة التنبه إلى تغير حال الدنيا من حال إلى حال، ويدلّ المثل الثاني على أنّه لا يجب أن يعتزّ المرء بما هو عليه من شهرة ومجد، فلابدّ من يوم يعاني مما يعاني منه الناس، ويتضمن المثل الثالث عزاء لمن غاب منفقه، فالله لابدّ أن يشمله برعايته كما هو حال البشر، لأنّ الرزق بيده وهو صاحبه، وما المنفق إلا سببا إذا غاب قدّر من هو بدلا عنه .

وأما المثل الرابع فيضرب للهم يصيب صاحبه، فلا هو قادر على الجهر به للناس، ولا هو قادر على كتمانه، ويذكر المثل الخامس للعدو يتظاهر بالصداقة نفاقا وتملقا لا يجب تصديقه، فلكل حقيقته، ولا يجب أن نخدع بمظاهر الأشياء لأنّها تبطن ما يؤذي .

والوضح أنّ الترصيع يخلق تواز موسيقي بين شطري المثل لتوازي اللفظتين المتقابلتين من شطري المثل وزنا، وتوافق أعجازها أي أواخرها، وما ذكرناه بالنسبة للترصيع أو لغيره من محسّنات البديع اللفظية لا يعدو كونه تمثيلا لا حصرا، ففي الأمثال ما يزيد على ذلك بكثير، وإنّما تمثيلنا هو فتح لباب من أبواب البحث في المثل الشعبي، من أجل كشف أغوار هذا النوع النثري الذي مثّل تراثا زاخرا لكل مجتمع وكل أمّة .

خلاصة :

في ختام هذه المداخلة نشير إلى أنّه بخصوص صور المجاز قد تميّز المثل الشعبي بحضور مكثّف لها، لأنّ ضرب الأمثال هو استحضار عبارات تلخّص قصصا أصلية نسبت لها في بداية نشوئها، وهي ما يسمى بمورد المثل لاستعمالها في مواقف مشابهة ومقاربة لمواقفها الأصلية للدلالة عليها، لذلك توصف الأمثال بأنّها في معظمها استعارات تمثيلية، أي مجازات، تنشأ دلالات جديدة تضاف إلى دلالتها الأصل كلّما تكرّر استعمالها بفعل تغير الزمن وتجدّد أحداثه وتشابهها .

ومثلما كانت صور المجاز في المثل كانوجود البديع في المثل الشعبي بوصفه صورة للجمال الظاهر الذي يبدو جليا في اللفظ وتنميقه فضلا على ما يتضمنه من معنى راقي وقيّم ،فالمثل بوجود البديع – بنوعه اللفظي خاصّة – يكتسي طابعا جماليا و نغما موسيقيا مميزا، ثم هو يؤدي دورا في توصيل المعنى للمتلقي بكونه يحمل رسالة كغيره من أنواع الكلام الأخرى (كالشعر، القصة ...) .

وهذا التجزيء الذي يمارسه البديع بمختلف صوره في بنية المثل وتركيبه هو تقسيم للمعاني المكونة له قبل أن يكون تقسيما للألفاظ ، غير أن هذا سرعان ما يتحول إلى وسيلة ربط تتكامل فيها معاني المفردات المكونة لصيغة المثل لتتجمع في المعنى الكلي الذي تتضمنه هذه البنية الظاهرة .

وهي –أي صورة البديع– فوق كل ذلك تجعل هذا المعنى يتشكل تشكيلا جديدا تصاحبه موسيقى خاصة تجعل من المثل بنية صوتية مميزة، يحسها السامع و يطرب لها بصورة تنفرد عن ما سواها مما يحمل مثل هذه الموسيقى كالشعر .

ولأن البديع ينسب في معناه اللغوي إلى الاختراع والإبداع،والمثل صورة للإبداع العربي، وبذلك تزاوج هذا مع ذاك في تشكيل لغوي رائع يحمل مضمونا معنويا أروع ، مما ضمن لهذا الشكل الإبداعي المثلي رواجا وذيوع بين الناس، فهو أي المثل : إضافة إلى أنه يحمل هذا الجمال التشكيلي الظاهر في بنية صوتية متميزة ، هو أيضا ينبثق من صميم الحياة العربية و يعالج قضاياها ، ويوظف ألفاظها ويصور مظاهرها ويحمل ضمنه تشكيلة فكرية معينة تعبر عما يفهمه العربي آنذاك ويفكر فيه.

هوامــش المداخـلـة :

[1]– ابن منظور، لسان العرب، دار الصادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ– 1994م، مج11، مادة مثل، ص 611 .

[2]– نفسه، ص 611 .

[3]– نفسه، ص 610 .

[4]– نفسه، ص 610، 611 .

[5]– نفسه، ص 614 .

[6]– محمّد بن القاسم الأنباري، كتاب الأضداد، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1407هـ – 1987م، ص 288 .

[7]– ابن منظور، لسان العرب، مج11، مادة (مثل)، ص 613 .

[8]– محمود السيّد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن، المكتب الجامعي الحديث، الأزاريطة، الإسكندرية، مصر، دط، 2001، ص 20 .

[9]– الفيومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، دط، 1987م، ص 215 .

[10]– جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة، شرحه وضبطه وصحّحه وعنون موضوعاته وعلّق حواشيه محمد أحمد جاد المولى – علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت، 1/ 486، 487 .

[11]– نفسه، 1/ 486 .

[12]– محمود السيّد حسن، التعبير اللغوي في أمثال القرآن، ص 18 .

[13]– ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق محمود محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، 1995م، 1/ 41، 42 .

[14]– رابح العوبي، أنواع النثر الشعبي، منشورات جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، دط، دت، ص 44 .

[15]– نفسه، ص 44 .

[16]– ابن الأثير، المثل السائر، 1/ 74، 75 .

[17]– عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق وتعليق سعيد محمّد اللحّام، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1999م، ص 197 .

[18]– عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية.....، ص 362

[19]– عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص 93.

[20]–قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة عبد الرحمن حاج صالح، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1987، ص 10 .

[21]– نفسه، ص 13 .

[22]– نفسه، ص 13 .

[23]– نفسه، ص 15 .

[*]– ومثله قولهم : المرض يحط بالقنطار والراحة تنزل بالوقية .

[24]– قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة عبد الرحمن حاج صالح، ص 40 .

[25]– نفسه، ص 43 .

[26]– نفسه، ص 46 .

[27]– نفسه، ص 53 .

[28]– نفسه، ص 54 .

[29]– نفسه، ص 56 .

[30]– http://www.sfari.com/forums/sfari2/travel20147/التاريخ : 2007/10/14 على الساعة 04:30 .

[31]– قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة عبد الرحمن حاج صالح، ص 56 .

[32]– الخطيب القز ويني ، الايضاح في علوم البلاغة ، شرح وتعليق وتنقيح محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ، المجلد الثاني ، 4/6 .

[33]– عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية – علم المعاني – البيان – البديع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان .

[34]– الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص193 .

[35]– نفسه، ص 5 –105 .

[36]– عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية – علم المعاني – البيان – البديع، ص 614 .

[37]– نفسه، ص 613 .

[38]– قادة بوتارن، الأمثالالشعبية الجزائرية، ترجمة عبد الرحمن حاج صالح، ص 27 .

[39]– نفسه، ص 27 .

[40]– نفسه، ص 61 .

[41]– نفسه، ص 62 .

[42]– نفسه، ص 65 .

[43]– محمد العمري، الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية – نحو كتابة تاريخ جديد للبلاغة والشعر، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2001 .

[44]– ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، 1995، 1/ 195 .

[45]– نفسه، 1/ 197 .

[46]– قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة عبد الرحمن حاج صالح، ص 10 .

[47]– نفسه، ص 11 .

[48]– نفسه، ص 11 .

[49]– نفسه، ص 13 .

[50]– نفسه، ص 14 .

[51]– نفسه، ص 16 .

[*]– الكرسف هو القطن وهو الكر سوف جعله ابن الأثير وصفا للثياب وإن لم يكن (ابن منظور، لسان العرب، مج 9، مادة (كرسف)، ص297) .

[52]–ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، 1/ 197، 198 .

[53]– نفسه، 1/ 198 .

[54]– عبد اللطيف شريفي – زبير دراقي، الإحاطة في علوم البلاغة، ديوان المطبوعات الجامعية، ابن عكنون، الجزائر، 2004، ص 199 .

[55]– نفسه، ص 199 .

[56]– قادة بوتارن، الأمثال الشعبية الجزائرية، ترجمة عبد الرحمن حاج صالح، ص 20 .

[57]– نفسه، ص 23 .

[58]– نفسه، ص 23 .

[59]– نفسه، ص 30 .

[60]– نفسه، ص 64 .